ISSN: 2523 – 1871

منهج الأوائل في دراسة العربية

د. ونيس مفتاح القماطي

قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة بنغازي

المستخلص

أغفل معظم مؤرخي اللسانيات (Linguistics) الجهود العربية في بناء النظرية اللغوية؛ على الرغم من أن بعضهم أشار إلى مساهمة العرب. وتبرز هذه الدراسة الإطار النظري لمنهج الأوائل، المنبثق من الرؤية الإسلامية الشاملة للكون التي جعلت منه منهجاً تفاعلياً. وقد بدأ الأوائل تأسيس منهجهم من خلال تحديدهم الهدف من دراسة اللغة، ومن ثم تحديد الآليات والإجراءات، التي تؤدي إلى تحقيق ذلك الهدف. وتشير الدراسة إلى أنهم اعتمدوا كذلك في جمعهم المادة اللغوية على الفصحاء من العرب، فارتحلوا إليهم، وشافهوهم، كما ساءلوا حدسهم أيضاً.

الكلمات المفتاحية:

النظرية اللغوية – منهج الأوائل

الدراسة

أغفل معظم مؤرخي اللسانيات (Linguistics) الجهود العربية في بناء النظرية اللغوية (مونان ، 1981 : 162 . 165، المسدّي ، 1981 : 23 . 24)؛ وعلى الرغم من أن بعضهم أشار إلى مساهمة العرب، لكن تلك الإشارات كانت عابرة (روبنز، 1979: 172 . 173)؛ بل إن بعضهم ذهب إلى القول بتأثر الدرس اللغوي عند العرب بغيره من المناهج (Lyons, 1975., P.19)؛ ولذلك كان الحديث عن المنهج العربي غامضاً ومشوّشاً عند الباحثين العرب، فتارة يُوصف بأنه معياري (Prescriptive) (حسان، 2001 : 13 ، 1980 : 23 . 26 ، 172 . 171 ، 1979 : 24 . 25)، وتارة بأنه وصفي (Descriptive) (الراجحي ، 2008 : 60 ، حسان ، 1980 : 22 . 23)، وتارة بأنه توليدي (Generative) (زكريا ، 1986 : 5 ، 1982 : 47 . 49، الراجحي، 2008)، وتارة أخرى ينكر بعضهم وجوده (زكريا ، 1986 : 5 ، 1982 : 47 . 49، الراجحي، 2008).

وتبرز هذه الدراسة الإطار النظري لمنهج الأوائل، المنبثق من الرؤية الإسلامية الشاملة للكون (النشار ، 1981 : 35، 39)، التي جعلت منه منهجاً تفاعلياً (Interactive) حيث تفاعلت فيه الوصفية وتكاملت مع التوليدية، كما طرح في الوقت ذاته المعيارية؛ إذ اعتمد على الشكل المكتوب من اللغة مادةً لدراسته، كما اعتنى بكل المستويات اللغوية (دي سوسير ، 1985 : 48 . 50 ، السيوطي ، 1987 : 14/1 . 15، Lyons, 1975., P.19 ، البكوش ، 2004 : 75).

وبهذه الأبعاد ولد المنهج التفاعلي لدى الأوائل، وأصبح عَلَماً على حضارة أمة وثقافتها، متفرداً بين مناهج الدراسة اللغوية، ولو أنصف المؤرخون الغربيون لعلوم العرب في عرضهم للمنهج العربي: ((في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة، لكانت اللسانيات المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم))(المسدي، 1981: 26).

للإسلام دورٌ أساسيٌّ في نقل المجتمع العربي من الثقافة الشفهية التي كانت تسيطر على مختلف شؤون الحياة، إلى الثقافة الكتابية التي أصبحت مكوّناً من مكوّنات حضارته. فالدين الجديد يدعو إلى المعرفة والعلم، والأخذ بأسباب ذلك عن طريق القراءة والكتابة (الشكعة، 1979: 11، 17 . 19)، وقد تمثلت هذه الدعوة من خلال الآيات الأولى من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (سورة العلق، الآيات: 1 . 5)؛ ولهذا شكّل القرآن الكريم محور اهتمامهم، أداءً، وفهماً، قراءةً، وتدبّراً. ومن ثم أصبح حجر الزاوية في الدراسات العربية الإسلامية. (ابن خلدون، 1960: 949/3، بروكلمان، 1983: 30/2 . 33، روبنز، 1997: 171، زيدان، (د. ت): 44/2).

ونتيجة لهذا الاهتمام كان علم القراءات أول علم يولد في الإسلام (زيدان، (د. ت): 43)، وفي هذا العلم الجديد حظي النص القرآني بالعناية والاهتمام، كيفيةً وأداءً؛ إذ تأسس منهجه على ((الأثبت في الأثر، والأصح في النقل)) (السيوطي، (د. ت): 75/1). وفي الوقت ذاته توجه الاهتمام إلى فهمه، وتدبره؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ (سورة ص، الآية: 25)؛ لأن القراءة وحدها دون تدبّر أو فهم، لا طائل تحتها، ولا هدف لها، (الزركشي، 2004: 220/1 . 223،

171/4، الزمخشري، 1947: 90/4)، وقد أخذت المباحث الإسلامية حول النص القرآني تنمو وتتطور، فنشأت علوم إسلامية أخرى مثل: التفسير، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، وغيرها من العلوم، (ابن خلدون، 1962: 1247/4 . 1248، زيدان، (د. ت): 42/2 . 44، السيوطي، (د. ت): 6/1 . 7).

في هذا الجو العلمي، الذي تنوّعت فيه المباحث القرآنية، نشأت الدراسات النحوية؛ حيث اشتهر الكثير من القراء بتأملاتهم اللغوية، وآرائهم النحوية، مثل: أبي الأسود الدؤلي، الذي تُعزى إليه بدايات النحو العربي (ابن النديم، 1988: 40 . 45، القفطي، 1950: 14/1 . 15)، ونصر بن عاصم، والسيرافي، وأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والكسائي، وغيرهم (ابن النديم، 1988: 30 . 37) ولهذا كان تأثير المباحث القرآنية المختلفة كبيراً وعميقاً في توجيه الدراسات النحوية، وتأسيسها؛ حيث استعارت من القراءات مبدأ الصحة في النقل، والثبوت في الرواية، كما أخذت من التفسير الاهتمام بعنصر المعنى، والربط بين المذكور في الكلام، والمقدر منه، إلى جانب أخذها الاستقراء، والاستنتاج من الفقه وأصوله (فيرستيج، 2007، 80/3 . 81، الجابري، 1996: 137).

وبالجمع بين هذين المبدأين: النقل الموثق للمادة اللغوية من جهة، وإعمال العقل فيها من جهة أخرى، تمكّن الأوائل من علماء العربية، من الوصول إلى قواعد عامة، وقوانين كلية، تفسر بنية الملكة اللغوية، وأنظمتها الداخلية، والعلاقات القائمة بينها، وتجمع شتات المادة اللغوية، وتفسر أجزاءها، في إطار كلي، ونظرة شمولية (ابن جني، (د. ت): 48/1. 55، 30/3 . 31، السيوطي، 1987: 59/1، ابن خلدون، 1960: 1027/3 . 1030، الجابري، 1998: 76، الأنباري، 1971: 136 . 137، دمشقية، 1976: 17 . 24)، وبهذا العمل الرائع والمبتكر يعتبر الأوائل من النحاة من علماء القرن الأول والثاني من الهجرة المتمثلين في أساتذة الخليل، وسيبويه، ومن تتلمذ لهما فيما بعد، أو عاصرهما من النحاة . المؤسسين الحقيقيين للنظرية اللغوية العربية، التي ابتكرت المنهج التفاعلي (Interactive) واتخذته أساساً في دراسة الظاهرة اللغوية وتحليلها، ويمثل كتاب سيبويه هذا المنهج أصدق تمثيل، حيث بنيت معالجات هؤلاء العلماء اللسانية وتحليلاتهم اللغوية على خلفيات فكرية سليمة، لم تتأثر بعلوم دخيلة، أو فلسفات وافدة؛ بل انطلقت من خلال إيمان هؤلاء المؤسسين بفطرية اللغة، وتفاوت المتكلمين في قدراتهم اللغوية، كفايةً وأداءً، إلى جانب اعتمادهم على الاستنتاج والاستنباط مع الملاحظة والاستقراء،

ISSN: 2523 – 1871

إدراكاً منهم بأن الدراسة اللغوية لا تصبح مجديةً إذا لم تتوفر لها هذه العناصر جميعاً (طحان وطحان، 1982: 16 . 27، عبده، 1973: 10 . 26، بروكلمان، 1983: 128/2 . 135، أنيس، 1972: 17 . 20، السيد، 1968: 102 . 105، البكوش، 2004: 36، 63، 75، حسان، 1980: 20 . 23، 27، جهامي، 1986: 15، فك، 1980: 59 . 60، الجرجاني، 1992: 4 . 5، 8، الراجحي، 1979: 33 . 44، عيد، 1978: 20، الرضي، 1978، 428/3، الطنطاوي، 1968، 164، فيرستيج، 2007، 68/3، Stekevychi، 1970. ، P. 3).

قد تميّز عمل الأوائل بالأصالة والابتكار، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى الإعجاب به، والإشادة بالعقلية العربية، حيث يقول: ((إذا كانت الفلسفة هي معجزة اليونان، فإن علوم العربية هي معجزة العرب))(الجابري، 1998: 80)؛ لأن الوصول إلى فهم آلية اللغة، ومعرفة أسرارها، واستخلاص قوانينها، أمر في غاية الصعوبة، فهو أقرب ما يكون إلى المعجزة، وهذا ما يؤكده باحث آخر بقوله: ((لا تنطوي مهمة النحوي على وضع القواعد لتلك البنى الكاملة التي يعرفها العرب معرفةً تامةً كونها لغتهم الأم، ولكنه يفعل ذلك من أجل الكشف عن الأسرار الكامنة وراء اللغة))(فيرستيج، 2007: 8/3)، وبهذه النظرة الكاملة والشاملة للظاهرة اللغوية من خلال ما تعكسه أبنية اللغة وتراكيبها، صار هذا المنهج ممثلاً لروح الحضارة الإسلامية، ومكوّناً من مكوّنات العقل العربي، حيث تمثل ((جوانب النحو فلسفة إسلامية خالصة: فكرة الزمان، الماضي والحاضر والمستقبل، فكرة التعليل، فكرة القياس العقلي النحوي، وفي إيجاز كل مقولات العقل الإسلامي ينبغي أن تستمد في أعماق النحو واللغة))(النشار، 1987: 56).

بدأ الأوائل تأسيس منهجهم من خلال تحديدهم الهدف من دراسة اللغة، ومن ثم تحديد الآليات والإجراءات، التي تؤدي إلى تحقيق ذلك الهدف، المتمثل في فهم القرآن الكريم، وإدراك معانيه (طحان وطحان، 1982: 22 . 23، الراجحي، 2008: 51، السامرائي، 1987: 11)، وقد أدركوا أن فهم أبعاد النص القرآني لن يتحقق إلاَّ من خلال معرفة الفصحى، وامتلاك ناصيتها (الزركشي، 2001: 370/1 . 378، السيوطي، (د. ت): 114/1، 179)؛ ولهذا اتجهوا إلى دراسة قوانين الملكة اللغوية، التي تحكم أداء الناطقين، واستخراج قوانينها الثاوية وراء نظام العربية، وهذا ما يؤكده أحد الباحثين؛ إذ يقول: إن

ISSN: 2523 – 1871

النحاة العرب ((استنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة، مطّردة شبه الكليات، والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام))(ابن خلدون، 1962: 1256/4).

إن الاتجاه إلى دراسة قوانين الملكة اللغوية مكّن الأوائل من تفسير تفاوت الكلام العربي فيما بينه، قوةً وضعفاً، خفاءً ووضوحاً، عن طريق ربطه بقدرات الناطقين اللغوية، وهذا ما يعبر عنه بعضهم بقوله: ((كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام: الجزل، والسخيف، والفصيح. . . وكله عربي))، (الجاحظ، 1990: 133/1). فالكفاية اللغوية (Linguistic Competence) لدى الناطقين باللغة متفاوتة، ومتباينة، ولا يوجد مجتمع لغوي واحد وموحد، كما يزعم بعض البنيويين (تشومسكي (أ)، 1993: 74 . 75)؛ لأن: ((اللغات كلها ملكات. . . وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما بالنظر إلى التراكيب))(ابن خلدون، 1962: 1268/4). ولهذا قسّم الأوائل الكلام العربي إلى: ((مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، ومحال كذب))، (سيبويه، 1966: 25/1)، ونتيجة لاختلاف الناطقين من حيث قدراتهم اللغوية، التي يعكس الأداء جزءاً منها؛ فقد اضطروا إلى تحديد المستوى اللغوي –موضوع الدراسة– على أنه المستوى الفصيح من الكلام العربي، الذي تمثل في لغة القرآن الكريم، كما تمثل في لغة الشعر الجاهلي، ولغة الفصحاء من العرب (الأنباري، 1971: 81 .83، فك، 1980: 15 .16، حسن، 1966، 20). والفصيح من الكلام العربي – كما يراه الأوائل– هو الكلام الأكثر شيوعاً واستعمالاً بين العرب، شعراً كان، أم نثراً، وهذا ما يعبر عنه أبو عمرو بن العلاء مخاطباً أحدهم حين قال له: ((أخبرني كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات)) (السيوطي، 1987، 184/1 . 187). والشيوع – كما يرونه– يعني موافقة الكلام لقوانين الملكة اللغوية، ولذلك لا يأخذون اللغة إلاَّ عمّن وافق أداؤه اللغوي تلك القوانين؛ أما إذا أظهر الناطق عدم موافقته لها: ((يهجروه ولم يسمعوا منه)) (الجاحظ، 1990: 146/1)؛ لأنه خرج عن النسق العام لنظام العربية، كمن يستبدل (لم) بـ(لن) في حالة النصب (الأنباري، 1971: 82)، فالانحراف عن قوانين الملكة هو الذي يجعل الكلام غير فصيح. وهذا – تقريباً– ما عناه ابن جني عند تفسيره عدم أخذ اللغة عن سكان المدن بقوله: ((كلام أهل الحضر مضاهٍ لكلام فصحاء العرب في حروفهم، وتأليفهم، إلاَّ أنهم أخلّوا بأشياء من إعراب

ISSN: 2523 – 1871

الكلام الفصيح)) (ابن جني، (د. ت): 29/2)، فالفصاحة في الكلام موافقته قوانين الملكة ليس إلاَّ، فالفصيح قد يكون بدوياً، كما قد يكون حضرياً، إذ ((لو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها، وترك تلقي ما يرد عنها)) (ابن جني، (د. ت): 5/2). وهذا بالفعل ما اعتمده الأوائل؛ إذ أخذوا اللغة عن الفصحاء جميعاً دون تفريق بين بدوي أو حضري، وهو ما يشير إليه قول سيبويه: ((والبيان في كل هذا عربي جيد حجازي)) (سيبويه، 1975: 347/3)، فهو هنا يصف لغة أهل الحجاز – وهم الحضر – بالجيدة، كما يصفها أحياناً بالقديمة الجيدة كقوله: ((وهي اللغة العربية القديمة الجيدة)) (سيبويه، 1975: 497/3). فالفصاحة – وإن شاعت بين أهل البادية– ليست مرتبطة بالبداوة كما يرى البعض (السيوطي، 1987: 212/1 . 214)، فالأخذ عن العرب لم ينحصر في القبائل البدوية وحدها؛ إذ بلغت نسبة الأخذ عنها حوالي 86% من مجموع ما أخذ عن العرب، كما بلغت نسبة الأخذ عن القبائل الحضرية أيضاً حوالي 14% (زكريا، 1982: 38 . 40، الهامش رقم 4، 53 . 54، سيبويه، 1975: 197/5 وما بعدها)، وكما أن الفصاحة ليست مرتبطة بالبداوة؛ فهي أيضاً ليست مرتبطة بالعامل الديني كما يزعم البعض (حمزاوي، 1986: 14 . 15)؛ بل إنها مرتبطة بالمستقيم من الكلام، ودرجته في الاستقامة، كما عبر عن ذلك الأوائل (سيبويه، 1966: 25/1)، ونتيجة لهذا اعتبر القرآن الكريم أفصح الكلام العربي (السيوطي، 1987: 213/1، فك، 1980: 16 . 17). فبقدر تدرج الكلام في سلم الاستقامة يندرج في سلم الفصاحة أيضاً؛ لأن الملكة اللغوية عند الناطقين بالعربية متدرجة، ومن ثم صارت الفصاحة أنواعاً، أو فصاحات (السيوطي، 1987: 212/1، حمزاوي، 1986: 7).

ولهذا اتخذ الأوائل الناطق الفصيح (Ideal speaker – hearer) موضوعاً لدراستهم؛ لأن الهدف كان منصبّاً على دراسة اللغة المبنية داخلياً (Internalized Language) التي تبرز صور التمثيل العقلي لكل المستويات اللغوية: النحوية، والصرفية، والصوتية، والدلالية، وربطها بالأداء اللغوي، أو مخرجات الكلام الفعلية (تشومسكي (أ)، 1993: 104 . 107). وبعد حوالي خمسة عشر قرناً أو يزيد، أخذت المدرسة التوليدية المعاصرة ذلك المبدأ، وجعلته أحد أركانها، حيث اعتبرت أن ((نحو اللغة وصف

ISSN: 2523 – 1871

للكفاية الفطرية عند الفصحاء)) (Chomsky، 1976. ، P. 4)، والناطق الفصيح – كما يراه الأوائل– يتصف بالطلاقة في التعبير، والدقة في الفهم، فهو متمكن من ناحية اللغة فهماً وإفهاماً على حدٍّ سواء (السيوطي، 1987: 184/1، الجاحظ، 1990: 133/1). ويقترب وصف التوليديين مع وصف الأوائل هذا؛ إذ تعتبره هذه المدرسة ((مالكاً لمعرفة تامة بلغته)) (Ibid، 1976. ، P. 30)، فهو لا يجد صعوبة في استخدام اللغة، ويظهر ذلك من خلال: ((القدرة على صياغة جمل جديدة، وفهم أي خطاب لم يسبق له أن سمعه من قبل)) (Chomsky، 1970. ، P. 111).

وانطلاقاً من هذا، اعتمد الأوائل في جمعهم المادة اللغوية على الفصحاء من العرب، فارتحلوا إليهم، وشافهوهم، كما ساءلوا حدسهم أيضاً (السيوطي، 1987: 57/1 . 59، 234، ابن جني، (د. ت): 313/3 . 319، طحان وطحان، 1982: الهامش 16، سيبويه، 1966، 409/1 . 412، 415، 189/4، الجاحظ، 1990، 133/1 . 134، فك 1980: 15، 60 . 61، حسان، 1980: 27، الفهري، 1993: 18، زكريا، 1982، 48 . 49، نحلة، 2004: 31 . 33). وقد تمثل هؤلاء الفصحاء الذين أخذت عنهم اللغة في عدد من القبائل، جمع بينها قاسم مشترك وهو الفصاحة؛ أي عدم الانحراف عن النسق العام لقواعد الملكة اللغوية (الفارابي، 1969: 147، السيوطي، 1987: 212/1 . 214، زكريا، 1982، 38 . 40، الهامش رقم 2، 53 . 54)، كما جمعت بينها – أيضاً– البيئة الجغرافية؛ حيث عاشت هذه القبائل جنباً إلى جنب داخل شبه الجزيرة العربية (حسن، 1966: 24، إبراهيم مصطفى وآخرون، (د. ت): 11).

فالعربية الفصحى نشأت ((واطّردت وتكاملت، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة، وفي تلك الجيرة)) (الجاحظ، 1990: 163/1)، وقد أكدت المدرسة الوصفية مبدأ تحديد البيئة المكانية – رغم إقرارها بصعوبة تطبيقه– باعتباره ركيزة أساسية في الدرس اللغوي، إلاَّ أن ذلك التأكيد تأخر عن أخذ الأوائل به حوالي اثني عشر قرناً من الزمان (دي سوسير، 1985: 159)، كما أكدته – فيما بعد– المدرسة التوليدية؛ إذ اعتبرت الساحل الشرقي من أمريكا بيئة مكانية للمتكلم الفصيح (Green، 1977. ، PP. 27-28).

لم يكتفِ الأوائل بتحديد المكان فقط؛ بل ذهبوا إلى تحديد الزمان أيضاً؛ باعتباره يمثل حالة من حالات اللغة؛ حيث ينعدم التطور اللغوي، أو يكاد في تلك الفترة، سواء على مستوى التراكيب، أم الأصوات، أم الدلالة. وقد حددت بداية تلك الفترة الزمنية (حالة الفصحى) بمائة وخمسين عاماً قبل الإسلام، كما حددت نهايتها بنهاية القرن الرابع الهجري، بالنسبة لسكان البادية، ونهاية القرن الثاني، بالنسبة لسكان المدن (إبراهيم مصطفى وآخرون، (د. ت): 11، حسن، 1966: 24)، وقد كان المنطق في تحديد تلك الفترة مؤسساً على الثبات النسبي، والاستقرار التقريبي للفصحى، وليس المطلق؛ إذ لا يمكن للغة بصورة عامة، إلاَّ أن تتطور، وتتغير، بتجدد المواقف، وتغيّر حاجات الناطقين بها؛ ولهذا فإن حالة اللغة التي تخضع للدراسة ((قد تطول وقد تقصر، وقد يكون مجموع ما يطرأ أثناءها من تغيرات طفيفاً جداً، فقد تبلغ تلك الفترة عشر سنوات، أو جيلاً، أو قرناً، بل وأكثر من ذلك... ولما كان حد الحالة اللغوية المطلقة هو انعدام التغيرات، ولما كانت اللغة تتغير رغم ذلك – مهما يكن ذلك التغير ضئيلاً– فإن دراسة حالة من حالات اللغة يؤول بنا عملياً إلى أن نهمل تلك التغيرات الطفيفة على غرار ما يفعل الرياضيون عندما يهملون في بعض عملياتهم الحسابية الكميات المتناهية في الصغر)) (دي سوسير، 1985: 158).

لم يقف الأوائل في عملهم عند حدود ملاحظة المادة اللغوية (Observational Adequacy)، كما لم يقفوا عند حدود الوصف لتلك المادة، أو ما يسميه التوليديون بكفاية الوصف (Descriptive Adequacy)؛ بل ضموا إلى الوصف عنصر التفسير، أو ما يسميه التوليديون بكفاية التفسير (Explantory Adequacy)(Chomsky، OP. ، Cit، P. 29) إدراكاً منهم أن ربط المخرجات اللغوية بالنظام الداخلي للملكة اللغوية لن يتحقق إلاَّ من خلال دمج عنصر التفسير مع عنصري الملاحظة والوصف؛ فهم كانوا يعتبرون اللغة نظاماً مجرّداً يقوم على الفروض التي يستنبطها العقل من خلال تراكيب الكلام وأبنيته المختلفة، وهذا ما يشير إليه الخليل بقوله: ((إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتللتُ أنا بما عندي أنه علة لما عللته به)) (الزجاجي، 1968: 66) فالتعليل أو التفسير كان مطلباً لفهم أسرار ذلك النظام التجريدي الذي سعوا إلى الكشف عنه، والمتمثل في اللغة المبنية داخلياً، التي تعكس الكفاية اللغوية لدى الناطقين

بالعربية، ولذلك لم يعتمدوا بشكل مطلق على لغة الأداء (External Language) – وإن توصلوا بها إلى معرفة ذلك النظام الداخلي– ويؤكد هذا التفسير عدم اكتفائهم بالمدونة اللغوية (Language Corpus)، التي تتمثل في كتاب سيبويه أحسن تمثيل (نحلة، 2009: 20؛ زكريا، 1982: 37)، حيث جعلوها مفتوحة وموسعة، ولا يعتمد فيها على راوٍ بعينه كما يفعل الوصفيون (حسان، 1980: 153؛ باي، 1983: 121 . 122، 132 . 133) بل تعدد فيها الرواة؛ لأن الكفاية اللغوية – كما يرون– لا تتمثل في شخص بعينه؛ بل في كل من لا يحيد عن النسق العام للنظام اللغوي. ويظهر عدم اكتفائهم بالمدونة من خلال مساءلتهم الحدس اللغوي، سواء على مستوى المتكلم، أم على مستوى الباحث. وباستخدام الحدس إلى جانب المدونة خالفوا الوصفيين، الذين لا يعتمدون الحدس مصدراً للدراسة، كما خالفوا التوليديين بأخذهم بالمدونة، فالتوليدية لا تعتبر المدونة مصدراً لدراسة اللغة (تشومسكي، (أ) 1993: 98 . 99).

قد استخدم الأوائل الحدس اللغوي بصورة موسعة فساءلوا حدسهم، كما ساءلوا حدس المتكلمين الفصحاء، إلى جانب مساءلة حدس أساتذتهم باعتبارهم متكلمين فصحاء من جهة، وباعتبارهم باحثين لغويين من جهة أخرى. وتنتشر مساءلة الحدس في كتاب سيبويه؛ بحيث لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته دون استخدامه لها. ويمثل ذلك ما يعرضه من أمثلة افتراضية كقوله: ((وتقول لمن كان شيء من هذه الأشياء صفته: لبّان، وتمّار، وبقّال، وليس في كل شيء من هذا قيل هذا، ألا ترى أنك لا تقول لصاحب البر برّار، ولا لصاحب الفاكهة فكّاه، ولا لصاحب الشعير شعّار، ولا لصاحب الدقيق دقّاق)) (سيبويه، 1973: 382/3)، فسيبويه هنا يسائل حدسه ويأتي بأمثلة افتراضية (شعّار، دقّاق)، لا يعتمد فيها على سماع، أو مشافهة؛ بل على نظام الملكة الثاوي خلف كفايته اللغوية، ويشير إلى ذلك في قوله: ((وهذا تمثيل لم يُتكلَّم به)) (سيبويه، 1966: 83/1). وقد جاءت التوليدية تؤكد صحة ما ذهب إليه الأوائل؛ حيث اعتمدت استخدام الأمثلة الافتراضية وسيلة للكشف عن قوانين الملكة اللغوية. (Lyons، 1968، PP. 125 – 126 ; Chomsky ، .1981، P. 15 ; Culicover ، .1976، P. 136 ; Stockwell :، .1977 ، PP. 16 – 18).

ISSN: 2523 – 1871

ويضم سيبويه استخدامه حدسه إلى جانب استخدامه حدس أساتذته أيضاً، من خلال أمثلة افتراضية كقوله: ((وإذا حقرت رجلاً اسمه قبائل قلت: قبيئل، وإن شئت قلت: قبئيل، عوضاً عما حذفت... وهذا قول الخليل، وأما يونس فيقول: قبيّل)) (سيبويه، 1973: 439/3)، فهو هنا يعرض ثلاث صور افتراضية لما يمكن أن تكون عليه صورة هذه الكلمة (قبائل) إذا استخدمت في التحقير؛ وذلك وفقاً لحدسه، وحدس الخليل ويونس. ويكثر سيبويه من مساءلة حدس أستاذه الخليل، وذلك مثل سؤاله عن بعض الظروف المبهمة، مثل: أمام، وغيرها، ويجيب الخليل بأنهن: ((نكرات إذا لم يضفن إلى معرفة، كما يكون أيمن وأشمل نكرة)) (سيبويه، 1973: 290/3). ولكن سيبويه لم يكتفِ هنا بحدس أستاذه، بل يضم إليه حدس الفصحاء من العرب؛ ليتأكد من سلامة حدس أستاذه، عن طريق موافقة الفصحاء له، فيقول معقّباً على قول الخليل: ((وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه... وسألنا العلويين، والتميميين فرأيناهم يقولون من قُدَيْدِيمَةٍ ومن وُرَيِّئَةٍ، لا يجعلون ذلك إلاَّ نكرة)) (سيبويه، 1973: 290/3 . 291).

لقد بدأ الأوائل دراسة العربية عن طريق الملاحظة والوصف، فرأوا أن أواخر الكلام العربي: ((تجري على ثمانية مجار: على النصب والجر والرفع والجزم، والفتح والضم والكسر والوقف)) (سيبويه، 1966: 13/1) حيث تختص الأربعة الأولى بالإعراب، والأخرى بالبناء، فالكلمات المكوّنة للتراكيب العربية قد تتغير حركة إعرابها فتنصب، أو تجر، أو تجزم، أو ترفع، حسب موقعها؛ ومن ثم تصبح هذه الحركة مميزة لها. وقد لاحظوا – أيضاً– أن تغير موقع الكلمات، إلى جانب الحركة (العلامة الإعرابية) المميزة لها، ينشأ عنهما تغيّر في وظائفها التركيبية؛ بحيث قد تصبح فاعلاً نحوياً، أو صفة، إلى غير ذلك من الوظائف، وسمّوا هذا التغيّر في حركة الأواخر إعراباً، أما عدم تغيّر حركة الأواخر؛ رغم تغيّر مواقع الكلمات في التركيب، فقد لقبوه بالبناء.

ولم يكتفِ الأوائل بملاحظة الكلام العربي ووصفه تركيبياً فقط، بل ذهبوا يبحثون عن السبب وراء ذلك؛ بهدف تفسير تلك الاختلافات الإعرابية، والموقعية لمكونات التراكيب في العربية، واهتدوا إلى فكرة العامل باعتباره عنصراً مهيمناً ومسيطراً في التركيب اللغوي، ومن ثم فهو الذي يحدد أبعاد هذه المكوّنات التركيبية وظيفياً ودلالياً (فيرستيج، 2007: 76/3 . 77، سيبويه، 1966: 13/1، طحان، 1983: 265)، وقد أدت فكرة العامل إلى نشأة مبدأ تفسيري جديد وهو التقدير؛ إذ وجدوا أن بعض

ISSN: 2523 – 1871

العوامل لا وجود لها في اللفظ، كما أن بعض معمولاتها قد تحذف أيضاً من الكلام، وهذا ما يشير إليه سيبويه بقوله: إن العرب في كلامهم قد ((يحذفون ويعوضون، ويستغنون عن الشيء بالشيء)) (سيبويه، 1966: 25/1)؛ ولذلك لجأوا إلى مبدأ التقدير، الذي يفترض وجود بنيتين: أصلية أو عميقة (Deep structure)، وبنية فرعية أو سطحية (Surface structure)، بحيث تمثل الأولى الكفاية اللغوية (Linguistic competence) بينما تمثل الثانية الأداء اللغوي (Linguistic performance). فالبنية السطحية غالباً لا تعطي كل المعلومات، بل تختزل بعضها، أو تحذفه، ولهذا لا يعتمد عليها وحدها في الدرس اللغوي الذي يهدف إلى استنباط قوانين الملكة اللغوية وتفسير آلياتها (تشومسكي (ب) 1993: 42 . 43، 53).

وقد ربط الأوائل بين هاتين البنيتين من خلال مجموعة من القواعد التحويلية الجوازية والوجوبية، بحيث تتحول البنية العميقة إلى ما نلحظه في البنية السطحية عن طريق ترتيب عناصرها إما بصورة طبيعية، أو بتغيير هذا الترتيب، وهو ما يُعرف بالتقديم والتأخير، الذي قد يكون واجباً، وقد يكون جائزاً مثل: الضمير المنفصل إذا وقع مفعولاً به، أو الاسم الظاهر إذا وقع مفعولاً به، وكذلك مثل: الحذف الواجب والجائز، كحذف العامل في باب الاشتغال، أو الاختصاص، وكحذف (أنْ) الناصبة بعد لام التعليل، واستتار الضمير وجوباً وجوازاً، إلى غير ذلك من القواعد التحويلية، التي تمكنوا عن طريقها من ربط الأداء اللغوي بالكفاية اللغوية، من خلال تطبيق نظرية العامل، وبذلك تجاوزوا حدود الملاحظة والوصف إلى التفسير بهدف معرفة نظام الملكة اللغوية، وتحديد كيفية عمل المنظومة القواعدية، وهذا ما رفع من قيمة عملهم المعجز والمبدع، وأعطاه مكانة متميزة في حقل الدراسات اللغوية، وإلى ذلك يشير أحد الباحثين بقوله: ((النحاة العرب يستحقون تقديرنا لكونهم علماء محترفين ومستقلين بذاتهم، وأن بوسعهم أن يعلمونا درساً مهماً جداً، وهو أن علم اللغة لا يتعلق باكتشاف البنى الصحيحة في اللغة، ولا بنماذج الصياغة وحسب؛ بل يعبر عن الواقع باللغة، لا بل اللغات عامة)) (فيرستيج، 2007: 8/3).

قائمة المصادر والمراجع

أولاً .العربية والمعربة:

1. **القرآن الكريم.**
2. ابن جني، أبو الفتح عثمان (دون تاريخ)، " الخصائص"، تحقيق محمد علي النجار ، بيروت ، دار الهدى.
3. ابن خلدون، عبدالرحمن(1960م)، "المقدمة الجزء الثالث"، تحقيق علي عبدالواحد وافي، ط1، مصر ، لجنة البيان العربي.
4. ابن خلدون، عبدالرحمن(1962م)، "المقدمة الجزء الرابع"، تحقيق علي عبدالواحد وافي، ط1 ، مصر ، لجنة البيان العربي.
5. ابن النديم، أبو الفرج(1988م)، "الفهرست"، تحقيق رضا تجدد، ط3، دار المسيرة.
6. الأنباري، أبو البركات كمال الدين(1971م) ، "الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة"، تحقيق سعيد الأفغاني، ط2، بيروت، دار الفكر.
7. أنيس، إبراهيم(1972م)، "من أسرار اللغة"، ط4، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
8. باي، ماريو(1983م)، "أسس علم اللغة"، ترجمة أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب.
9. بروكلمان، كارل(1983م)، "تاريخ الأدب العربي الجزء الثاني"، ترجمة عبدالحليم النجار، ط5، مصر، دار المعارف.
10. بشر، كمال(1971م)، "دراسات في علم اللغة (القسم الثاني) "، ط2، مصر، دار المعارف.
11. تشومسكي، ناعوم(1993م)، " (أ) المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها"، ترجمة محمد فتيح، ط1 ، مصر، دار الفكر العربي.
12. تشومسكي، ناعوم (1993م)، "(ب) اللغة والعقل "، ترجمة إبراهيم مشروح وزميله، مراكش دار تينمل.
13. الجابري، محمد عابد(1996م)، "بنية العقل العربي"، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
14. الجابري، محمد عابد(1998م)، "تكوين العقل العربي"، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

15. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(1990م)، "البيان والتبيين"، تحقيق وشرح حسن السندوبي، سوسة، دار المعارف.
16. الجرجاني، عبدالقاهر(1992م)، "دلائل الإعجاز"، تحقيق محمود محمد شاكر، ط3، القاهرة، مكتبة الخانجي.
17. جهامي، جيرا (1994م) ، "الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية"، بيروت، دار المشرق.
18. حسان، تمام(2001م)، "اللغة العربية: معناها ومبناها"، الدار البيضاء، دار الثقافة.
19. حسان، تمام(1980م) ، "اللغة بين المعيارية والوصفية"، الدار البيضاء، دار الثقافة.
20. حسن، عباس(1966م)، "اللغة والنحو بين القديم والحديث"، مصر، دار المعارف.
21. حمزاوي، محمد رشاد(1986م)، "العربية والحداثة"، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
22. دمشقية، عفيف(1976م)، "تجديد النحو العربي"، لبنان، معهد الإنماء العربي.
23. دي، سوسير ف(1985م)، "دروس في الألسنية العامة"، ترجمة صالح القرمادي وآخرين، الدار العربية للكتاب.
24. الراجحي، عبده(1979م)، "فقه اللغة في الكتب العربية"، بيروت، دار النهضة العربية.
25. الراجحي، عبده(2008م)، "النحو العربي والدرس الحديث"، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
26. الرضي، محمد بن الحسن(1978م)، "شرح الرضي على الكافية"، تحقيق وتعليق يوسف حسن عمر، بنغازي، جامعة قاريونس.
27. روبنز، ر ، هـ (نوفمبر 1977م)، " موجز تاريخ علم اللغة "، ترجمة أحمد عوض، **عالم المعرفة**، العدد: 207، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
28. الزركشي، بدر الدين محمد(2001م)، "البرهان في علوم القرآن"، تحقيق مصطفى عبدالقادر، بيروت، دار الفكر.
29. الزجاجي، أبو القاسم(1968م)، "الإيضاح في علل النحو"، تحقيق مازن المبارك، بيروت، دار النفائس.

30. زكريا، ميشال(1983م)، "الألسنية (علم اللغة الحديث): المبادئ والأعلام"، بيروت، المؤسسة الجامعية.
31. زكريا، ميشال(1982م)، "بحوث ألسنية عربية"، بيروت، المؤسسة الجامعية.
32. الزمخشري، محمود بن عمر(1947م)، "الكشاف"، تحقيق مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي.
33. السامرائي، إبراهيم (1987م) ، "المدارس النحوية أسطورة وواقع"، عمان، دار الفكر.
34. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(1966م)، "الكتاب الجزء الأول"، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، دار القلم.
35. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(1973م)، "الكتاب الجزء الثالث"، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون الهيئة المصرية العامة للكتاب.
36. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(1968م)، "الكتاب الجزء الثاني"، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، دار الكتاب العربي.
37. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(1975م)، "الكتاب الجزء الرابع"، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
38. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(1977م)، "الكتاب الجزء الخامس (الفهارس التحليلية للكتاب) "، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
39. السيد، عبدالرحمن(1986م)، "مدرسة البصرة النحوية"، مصر، دار المعارف.
40. السيوطي، عبدالرحمن(1987م)، "المزهر في علوم اللغة وأنواعها "، تحقيق جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل، بيروت، المكتبة العصرية.
41. السيوطي، عبدالرحمن(دون تاريخ)، "الإتقان في علوم القرآن"، القاهرة، دار نهر النيل.
42. الشكعة، مصطفى(1979م)، " مناهج التأليف عند العلماء العرب"، بيروت، دار العلم للملايين.
43. طحان، ريمون(1983م) ، "فصول في فقه اللغة العربية"، القاهرة، مكتبة الخانجي.

44. طحان، ريمون وطحان دنيز(1982م) ، "فنون التقعيد وعلوم الألسنية" بيروت، دار الكتاب اللبناني.
45. الطنطاوي، محمد (1968م) ، "نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة"، ط1 ، مصر، مطبعة السعادة.
46. عبده، داود (1973م) ، "أبحاث في اللغة العربية"، مكتبة لبنان.
47. عيد، محمد (1978م) ، "أصول النحو العربي"، القاهرة، عالم الكتب.
48. الفارابي، أبو نصر (1969م)، "الحروف" تحقيق محسن المهدي، بيروت.
49. الفاسي، الفهري عبدالقادر (1998م)، "المعجم العربي: نماذج تحليلية جديدة"، الدار البيضاء، دار توبقال.
50. فك، يوهان (1980م) ، "العربية"، ترجمة رمضان عبدالتواب، مصر، مكتبة الخانجي
51. فيرستيج، كيس (2007م) ، "أعلام الفكر اللغوي: الجزء الثالث التقليد اللغوي العربي" ترجمة أحمد الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة.
52. القفطي، جمال الدين (1950م)، "إنباه الرواة على أنباه النحاة :الجزء الأول " تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية.
53. المسدي، عبدالسلام (1981م)، التفكير اللساني في الحضارة العربية"" الدار العربية.
54. مصطفى، إبراهيم وآخرون (بدون تاريخ) ،"المعجم الوسيط"، استانبول، المكتبة.
55. مونان، جورج (1981م) ، "تاريخ علم اللغة ونشأتها حتى القرن العشرين"، ترجمة بدر الدين القاسم، ط1 ، جامعة حلب.
56. نحلة، محمود أحمد(2009م)، "النحو العربي: أعلام ونصوص" دار المعرفة الجامعية.
57. نحلة، محمود أحمد (2004م)، "أصول النحو العربي" دار المعرفة الجامعية.
58. النشار، علي سامي(1981م) " نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" دار المعارف.

ثانياً .المراجع الأجنبية:

1 - Chomsky, N (1976) , "Aspects of the Theory of Syntax " The M I T press.

2 - Chomsky, N (1970) , "Current Issues in Linguistic Theory" Mouton & Co Printers The Hague.

3 - Chomsky, N (1968) , "Syntactic Structures" ,Mouton & Co Printers The Hague.

4 - Culicover, P W (1976) , "Syntax",Academic press ITC.

5 - Greene, J (1977) , "Psycho Linguistics" Penguin Books LTP

6 - Lyons, J (1975) , "Introduction to Theoretical Linguistics" Cambridge University press

7 - Lyons, J (1941) , "Language and Linguistics: An Introduction" Cambridge University press

8 - Stetkevych, J (1970) , "The Modern Arabic Literary Language" The University of Chicago press

9 - Stockwell, R P (1977) , "Foundations of Syntactic Theory" prentice Hall INC Englewood cliffs NewJersy